الاستشهاد بالشعر وأهميته

د. مسعود غريب
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

ملخص:

لقد ساهمت الشواهد الشعرية مساهمة فاعلة في تأسيس قواعد اللغة، وكذا تفسير معاني القرآن الكريم.وذلك منـــذ القـــرن الأول الهجري،وإن كانت البدايات الأولى محدودة ومقتصرة على تفسير بعض ألفاظ القرآن الكريم الغريبة، لتتسع فيما بعد لتشمل شتى القضايا اللغوية، وإن كان الشاهد كمصطلح لم يكن معروفا ولا مستخدما لا من قبل النحاة، ولا من غيرهم، وبخاصـــة فـــي القرن الأول الهجري. فما الشاهد؟ وما أهميته؟

Abstract:

Since the first century AH, the Poetic evidences had an effective contribution to the establishment of Grammar, as well as the interpretation of the Holy Quran. Despite that the beginnings were limited and confined to explain some of the strange words of the Holy Quran, but Later it was expanded to include various linguistic issues, and though the Poetic evidence as a term was not known nor used by the grammarians nor others, at that century (1st AH). In this paper we will try to answer the following questions: what's the Poetic evidence? what is its significance?

Résumé:

Depuis le premier siècle de l'hégire, les témoignages poétiques ont eu une contribution efficace à la mise en place de la grammaire, ainsi que l'interprétation du Coran. Malgré que les débuts ont été limités et confinés à expliquer certains des mots étranges du Coran, mais plus tard il a été élargi pour inclure divers sujets linguistiques, bien que la preuve poétique comme un terme n'était pas connu ni utilisées par les grammairiens, ni les autres, à ce siècle. Dans cet article, nous allons essayer de répondre aux questions suivantes: quelle est la preuve poétique? Quelle est sa signification?

الشاهد لغة واصطلاحا:

مما لا شك فيه أن اللغويين العرب قد اهتموا بالشعر اهتماما بالغا فكانوا يحتجون به في شتى القضايا اللغوية، ولم لا؟ والشعر ديوان العرب، وسجل مفاخرهم ومآثرهم.فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول:عليكم بديوانكم لا تضلوا قالوا، وما ديواننا؟ قال شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم[1].كما روي أيضا أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال:«إذا سألتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب»[2].وكان رضي الله عنه يعتبر أول مفسر استشهد بالشعر، حيث كان حين يشرح الكلمة الغريبة، وهو يجيب على تساؤلات نافع بن الأزرق المشهورة يقول مستدلا:أما سمعت الشاعر مثلا يقول:...،أو ما سمعت الحطيئة يقول:...[3].

وهكذا فالاحتجاج بالشعر كان وليد القرن الأول الهجري، حيث كانت الدلالة الاصطلاحية للشاهد واضحة في الأذهان ومترجمة عمليا، وإن كانت بداياته الأولى محدودة ومقتصرة على توضيح وتفسير بعض ألفاظ القرآن الكريم، ليتسع فيما بعد ليشمل قضايا اللغة في شتى علومها، ومختلف مجالاتها .

وقبل الخوض في الحديث عن كل القضايا المتعلقة بالشاهد، وبخاصة الشاهد الشعري وما أكثرها! يجدر بنا أن نوضح، ونحدد ماهية الشاهد لغة واصطلاحا .

1- **الشاهد لغة :** اتضح من خلال البحث عن الدلالة المعجمية للفظة((شاهد))،في أمات المعاجم العربية أن الجميع يتفق على أن الشاهد:هو الحاضر،اللسان،المخبر،المبين.فهذا ابن منظور يقول:«الشاهد اللسان من قولهم لفلان شاهد حسن،أي:عبارة جميلة»[4].وكذا صاحب تاج العروس بدوره يقول:«الشهادة خبر قاطع كذا في اللسان، والأساس»[5]. أما ابن فارس فيلخص لنا معنى الشاهد فيقول:«مادة شهد الشين والهاء والدال أصل يدل على حضور وعلم وإعلام»[6].

2- **الشاهد اصطلاحا :** فإذا كانت الدلالة الاصطلاحية للشاهد واضحة المعالم في الأذهان ومترجمة على أرض الواقع منذ أن دعت الضرورة للاحتجاج والاستشهاد. فإن الشاهد كمصطلح لم يكن معروفا ولا مستخدما لا من قبل النحاة، ولا من غيرهم، وبخاصة في القرن الأول الهجري بل من الصعب تحديد الفترة الزمنية التي تم فيها استخدام مصطلح الشاهد وتداوله،- وإن كان هناك من يشير إلى ابن إسحاق(110 هـ) واستخدامه لهذا الرمز اللغوي - « فقد روي أن الحجاج سأل سمرة بن الجعد الشيباني إن كان يروي الشعر فقال: إني لأروي المثل والشاهد. فقال الحجاج: المثل قد عرفناه .فما الشاهد؟ قال: اليوم تكون العرب من أيامها عليه شاهد من الشعر، فأنّي أروي ذلك الشاهد»[7]. فما مدلول الشاهد اصطلاحا؟

لقد ورد في معجم المصطلحات النحوية والصرفية أن«الشاهد:قول عربي لقائل موثوق بعربيته يورد للاحتجاج والاستدلال به على قول أو رأي»[8].وبتوفر هذه الشروط والخصائص يتحقق المعنى الاصطلاحي للشاهد،ويكون هذا الأخير قادرا على أداء الغرض الذي من أجله جيء به.أو هو كما عرفه يحيى عبد الرؤوف جبر:« أما في الاصطلاح اللغوي فهو جملة من كلام العرب،أو ما جرى مجراه، كالقرآن الكريم تتسم بمواصفات معينة، وتقوم دليلا على استخدام العرب لفظا لمعناه،أو نسقا في نظم أو كلام.أو على وقوع شيء إذا اقترن بغيره،أو على علاقة بين لفظ وآخر،أو معنى وغيره، وتقديم وتأخير واشتقاق وبناء، ونحو ذلك مما يصعب حصره، ومما هو محسوب في مناحي كلام العرب الفصحاء»[9].

3- **الشاهد والمثال :** من الأمور التي لها علاقة مباشرة بتحديد مفهوم مصطلح الشاهد، والتي ينبغي الوقوف عندها، والفصل فيها، هي مسألة الشاهد والمثال في العربية «مخافة أن يجر اللبس بينهما إلى نوع من الخلط وإصدار الأحكام دون روية»[10].الأمر الذي دفع بالعلماء إلى التفريق بينهما.فهذا التهانوي في موسوعته كشاف اصطلاحات الفنون يفرق بينهما قائلا:«المثال: يطلق على الجزئي الذي يذكر لإيضاح القاعدة وإيصالها إلى فهم المستفيد»[11].

أما الشاهد:«فهو الجزئي الذي يستشهد به في إثبات القاعدة من التنزيل،أو من كلام العرب الموثوق بعربيتهم»[12].

ويتضح من هذا أن الشاهد كما عرفه التهانوي هو المأخوذ من القرآن الكريم، أو من كلام العرب نثره وشعره الموثوق بعربيتهم؛ ولذا« فالأقوال التي ينقلها النحوي أو المعجمي عن العرب بالشروط المذكورة أعلاه تعد من الشواهد،وما يخالف شرطا من هذه الشروط فلا ينتمي إلى العرب الموثوق بعربيتهم، وليس شاهدا، وإنما يأتي به النحوي أو اللغوي على سبيل التمثيل؛ لأن المثال يمكن أن يكون مصنوعا يخترعه عالم اللغة، أو منقولا يأخذه عن غيره، ويهدف به إلى إيضاح القاعدة، وإيصالها إلى فهم المستفيد»[13].

4- **أنواع الشواهد وأقسامها :** بالنظر إلى مكانة الشاهد في العلوم العربية والإسلامية تنظيرا وتطبيقا، فإنه لا يخلو علم من تلك العلوم من شواهد تحقق الغرض،وتلبي الحاجة سواء في جوانبه النظرية أو التطبيقية بمختلف أشكالها الأدبية، وإذا كان الأمر كذلك؛ فإنه يمكننا تصنيف الشواهد وفقا لمعيارين :

4-1 من حيث الموضوع : يمكن تقسيم الشواهد من حيث موضوعاتها تبعا للغرض منها إلى :

4-1-1 الشواهد المعجمية : وهي الأكثر عددا وانتشارا في المعاجم وكتب اللغة والتفسير؛لأن نسبتها إلى المعجم لا تعني أنها مقصورة على المعجم.وهذا النوع من الشواهد هو الذي يؤتى به، إما ليكون دليلا على أن اللفظ المقدم مستعمل في لغة العرب،أو لإعطاء الدليل على معناه،أو على أحد معانيه.

4-1-2 الشواهد النحوية : ويقصد بها«ما جيء من كلام العرب شاهدا لعامل نحوي، أو لأثر إعرابي، أو علامة بناء أو إعراب أصلية أو فرعية ونحو ذلك مما يقوم عليه النحو العربي وأصوله...يستوي في ذلك الشاذ النادر والقياس المطرد»[14]ويأتي هذا النوع من الشواهد في المرتبة الثانية من حيث العدد وسعة الانتشار بعد الشواهد المعجمية.

4-1-3 شواهد البلاغة والنقد والعروض : وهي تلك الشواهد التي أتى بها أصحاب هذه العلوم من كلام العرب« لبيان معنى حسن أو درئ، أو صورة مليحة أو قبيحة، أو وزن موسيقى أو زحاف»[15].فهي من جهة أخرى تلك الشواهد التي لا يشترط فيها ارتباطها بعصور الاحتجاج خلاف الشواهد المعجمية والنحوية التي يشترط فيها ارتباطها بالدائرة الزمانية والمكانية لعصور الاحتجاج لأنها«لا تقوم في جوهرها على الألفاظ لمعانيها، ولا لآثار بعضها في بعض بقدر على ما يطرأ في ذهن المتلقي عند تلقيها من استجابة تتمثل في استحسان أو استهجان»[16].

4-1-4 الشواهد الفقهية : وهي تلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية أو التدليل عليها. وهي أيضا ما يستعان به من كلام العرب لتفسير معاني القرآن الكريم، أو الحديث النبوي الشريف.أو التدليل عليها أيضا.

4-1-5 الشواهد ذات الأغراض المتعددة : وهي تلك الشواهد التي يمكن أن يستشهد بها على أكثر من موضوع فيكون شاهدا معجميا وبلاغيا وفقهيا في آن واحد، ويضربون لذلك مثلا بالشاهد الآتي :

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا بنوهنّ أبناءُ الرجال الأباعد

فهو شاهد نحوي على جواز تقديم الخبر، وشاهد بلاغي كمثال على التشبيه، وشاهد فقهي على الوصية.

4-2 من حيث الجنس الأدبي :

4-2-1 الشواهد القرآنية : ويقصد بها تلك الآيات القرآنية التي توصل بها الفقهاء إلى استخلاص الأحكام، والتدليل عليها، والتي اعتمد عليها اللغويون العرب في أثناء تقعيد اللغة،وسن قوانينها حيث يمثل القرآن الكريم اللغة المثالية الرفيعة التي فهمها الجميع ،وأوثق نص لغوي في العربية يقول صاحب خزانة الأدب:«فكلامه –عز اسمه– أفصح كلام وأبلغه ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشاذِّه »[17].

2-2-4 شواهد الحديث النبوي الحديث : مما لا اختلاف فيه أن الحديث النبوي الشريف هو المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم؛لأنه كلام أفصح العرب عليه الصلاة والسلام، بل هو وحي يوحى من رب العالمين، وما دام على هذه الدرجة من القوة والفصاحة، كان من الأجدر أن يعتمد عليه في الاحتجاج اللغوي دون تردد. لكن الواقع اللغوي وبخاصة عند القدامى لا يعكس ذلك البتة، بل نلاحظ ندرة في الأحاديث المستشهد بها في كتب النحو واللغة، فهذا **الكتاب** على أهميته وسبقه لا يتجاوز عدد الأحاديث المستشهد بها فيه بضعة أحاديث.وإن كان لهذا الإحجام والتحفظ أسبابه منها:أن بعض الأحاديث قد رويت بالمعنى لا باللفظ، مما جعلهم غير واثقين«أن ذلك لفظ الرسولﷺ إذ لو وثقوا بذلك، لجرى مجرى القرآن الكريم في إثبات القواعد الكلية»[18].وإن كانت هذه الحجة«مرفوضة؛لأن تدوين الحديث إنما تم قبل نهاية عصر الاحتجاج ،أي أنه حتى لو صحّ ما قيل من تغيير ألفاظ النبيﷺ ، فإن الفاعل من الفصاحة بحيث يصح الاستشهاد بكلامه، وإلا كيف تم لهم الاستشهاد بالشعر الذي قيل في نفس الفترة وبعدها؟ يضاف إلى ذلك أن علماء الحديث قد بينوا لنا الحديث الصحيح والحسن من الأحاديث دون سواهما مما لا يوثق به ولا يؤخذ»[19]. وبالرغم من هذا كله نجد من أهل اللغة من ظل ينكر الاستشهاد بالحديث كابن الضائع (680 هـ) وأبي حيان الأندلسي (745 هـ) وجلال الدين السيوطي (911 هـ).

3-2-4 **شواهد الشعر والرجز :** لقد نالت الشواهد الشعرية حظا وفيرا في الدرس اللغوي، وبخاصة في النحو العربي، إذ لا بد لكل نحوي من شاهد يستشهد به؛ وذلك ليعزز به موقفه، ويؤيد به وجهة نظره، ويدعم به مذهبه، ويتأكد ذلك إذا كان في المسألة اختلاف، أو كانت خارجة عن القياس، وبخاصة من الشعر نظرا لمنزلته الكبيرة في نفوس العرب فهو«معدن علم العرب، وسفر حكمتها،وديوان أخبارها، ومستودع أيامها، والسور المضروب على مآثرها، والخندق المحجوز على مفاخرها، والشاهد العدل يوم النفار، والحجة القاطعة عند الخصام»[20]، وهو كما قال ابن فارس:«ديوانهم وحافظ مآثرهم ومقيد أحسابهم»[21]. لذا كانت شواهد الشعر أكثر الشواهد عددا، حيث كانت« العنصر الغالب في دراسات النحاة المتقدمين والمتأخرين من بين مصادر الاستشهاد»[22].

4-2-4 **شواهد النثر العربي :** النثر كما هو متعارف عليه في الدراسات الأدبية قسمان:نثر فني ويشمل:الخطب والرسائل والأمثال والحكم، وإن لم يعتمد في الاحتجاج منه سوى الأمثال والحكم إذ هي كثيرة في مؤلفات النحاة واللغويين بالنظر إلى قصرها وسهولة حفظها. ونثر عادي يتمثل في لغة الحديث والتخاطب،وقد استشهد به النحاة في كتبهم إما بالاعتماد على المشافهة مع الأعراب أو السماع عن الرواة والثقات وخير دليل عبارة:سمعنا بعض الموثوق بهم...والعرب تقول:... ومن ذلك قول العرب[23]

5- **أهمية الاستشهاد :** إذا لم يستشهد النحاة على أن الفاعل اسم مرفوع، أو على اسمية المبتدأ مثلا باعتبار أن ما جاء على الأصل والقياس وكان بديهيا مطردا لا يحتاج إلى دليل؛لأن«من تمسك بالأصل خرج عن عهدة المطالبة بالدليل»[24]. فإنه في حال وجود خلاف،أو خروج عن قياس، أو بغية تفنيد رأي ، أو إظهار ضعف هذا المذهب أو ذاك، أو عدم جوازه. لا بد من توظيف الشاهد من أجل تحقيق الاقتناع وإزالة الشك، وبالتالي رفع نسبة التصديق عند المتلقي .

كما تبرز أهمية الشاهد وبخاصة في علم النحو في مجال توظيفه، إذ الشاهد يعكس مدى قيام النحاة به إذ قيل:إن الشاهد في علم النحو هو النحو.ناهيك عن العدد الكبير من الشواهد بمختلف أنواعها التي تعج بها مؤلفاتهم ابتداء من سيبويه .

أما في مجال البحث فهناك دراسات وبحوث كثيرة تناولت الشاهد شرحا وتحليلا قديما وحديثا ، ومدى ارتباطه بالمذاهب النحوية والكلامية؛ولذا يعد الاحتجاج بالشعر من أهم الركائز التي أسست عليها علوم اللغة؛ إذ أمدها الشعر بأفصح التراكيب وأبلغها، وأجزل المعاني وأقواها، وأصح الأساليب وأمتنها، فأثره واضح في بناء أصولها، ووضع أسسها، وضبط قواعدها وأقيستها.

كما أن له منزلة سامية، وأثرا بالغا في فهم غريب القرآن الكريم، والوصول إلى معانيه فالشعر قد ساهم مساهمة فاعلة في تأسيس قواعد اللغة، وكذا تفسير معاني القرآن الكريم. وذلك لما تتمايز به اللغة الشعرية.

ورغم كل هذا الاهتمام فأننا نجد الكثير من الشواهد الشعرية، قد أصابها ما أصاب النصوص الشعرية، حيث الكثير منها بلا نسبة، أو مختلف في نسبته، أو هو موضوع أصلا. وما وصل إلينا متفقا على نسبته إلى قائليه، فإنه يمكننا أن نتساءل عن القائل الذي يجدر بنا لأن نحتج بشعره سواء في متن اللغة، أوفي المعاني؟

فبالعودة إلى ما قام به ابن سلام الجمحي في كتابه الطبقات[25] يتضح لنا ما الشعر الذي ينبغي أن يعتمد في تقعيد اللغة،أو تفسير القرآن الكريم.وإذا كان علماء اللغة قد أجازوا الاستشهاد بشعر الطبقات الثلاث الأولى على قواعد اللغة ومتنها، فإني أرى أنه من المستحسن ألا تفسر ألفاظ القرآن الكريم بشعر قيل بعد نزول القرآن الكريم؛ لأنه ليس من المستبعد أن يكون ذلك مجرد اقتباس.وقد صدق سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال:«أيها الناس،عليكم بديوانكم لا يضلُّ. فقالوا: وما ديواننا ؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم»[26].حيث نسب الشعر الذي ينبغي أن يعتمد في تفسير الغريب من ألفاظ القرآن الكريم إلى الجاهلية،وهي نسبة ليست بالاعتباطية، لها ما يبررها؛ لأنه شتان بين من كان يستعمل تلك الألفاظ بسليقته بعيدا عن كل تأثير أو توجيه، وبين من وظف ذلك بعد أن شاع استعمالها في القرآن الكريم،وتساءل الفصحاء عن معانيها؛ ولذا فهو أمر ينبغي أن يظل حكرا على الشعراء الجاهليين،وإن كان المخضرون أصحاب الطبقة الثانية هم كالجاهليين في قوة الاحتجاج بشعرهم. إضافة إلى شرط الزمان،لابد أيضا من مراعاة المكان،حيث اعتبر وسط الجزيرة العربية، دون بقية أطرافها، موطنا للفصاحة التي لا تتحقق إلا بتوفر شرط الزمان والمكان معا.

وهكذا كلما ابتعد الناس عن عصر نزول القرآن الكريم ازدادت حاجتهم إلى معرفة غريبه، وظل شعر عصر الاحتجاج وبخاصة الشعر الجاهلي يجيب عن استفساراتهم المتجددة؛ باعتباره من أهم الوسائل التي ساهمت مساهمة فاعلة في فهم غريب القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وبذلك نستطيع القول:إن الشعر العربي كان من وراء نمو وازدهار حركةَ التفسير،ولا سيما الجاهلي الذي يكثر فيه الغريب. كما كان اليد الطولى في خدمة المعاجم، وكتب النحو والصرف والبلاغة،حيث مدها بشواهد ساهمت إلى حد كبير في تأصيل هذه العلوم.

الإحالات:

[1]- شواهد الشعراء المخضرمين في التراث النحوي.د مجدي إبراهيم. دار الكتاب المصري.القاهرة ط1 .2000 . ص12

[2] - الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.تح مركز الدراسات القرآنية.مجمع الملك فهد. السعودية د.ط. د.ت. ج3. ص848.

[3]- ينظر المصدر نفسه ج3. ص849-902

[4] - لسان العرب. ابن منظور تح.عامر أحمد حيدر.دار الكتب العلمية.ط1. لبنان.2003. مادة (شهد)

[5] - تاج العروس للزبيدي .تح عبد العليم الطحاوي.مطبعة حكومة الكويت . ط2 الكويت.1987. مادة (شهد)

[6] - معجم المقاييس في اللغة.ابن فارس.تح شهاب الدين ابو عمرو.دار الفكر.ط2.بيروت1998.(مادة شهد).

[7]- مروج الذهب.للمسعودي.تح كمال حسن مرعي.المكتبة العصرية.ط1. بيروت 2005 .ج3 .ص114

[8] - معجم المصطلحات النحوية والصرفية. د نجيب اللبدي مؤسسة الرسالة ط1. بيروت 1985. ص 119.

[9]- الشاهد اللغوي لحي عبد الرؤوف جبر . مجلة النجاح للأبحاث م 2 العدد 06 (1992)

[10]- المثال والشاهد في كتب النحويين والمعجميين العرب،حسن حمزة،دار ومكتبة الهلال بيـــروت ط 1، 2010، ص 19.

[11]- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم التهانوي تح علي دحروج ،مكتبـــة لبنـــان ط 1،لبنـــان 1996، مـــج 02 ، ص 1447.

[12]- المصدر نفسه مجلد 02 ، ص 1447.

[13]- المثال و الشاهد حسن حمزة ، ص 27.

[14]- الشاهد اللغوي يحي حبر ، ص 266.

[15]- المرجع نفسه ، ص 266.

[16]- الاستشهاد والاحتجاج باللغة .عيد محمد ، عالم الكتب..ط3 . القاهرة .1988 . ص 205.

[17]- خزانة الأدب.عبد القادر البغدادي.تح. عبد السلام هارون.مكتبة الخانجي. ط 1.القاهرة 1997 ج1.ص 09.

[18]- المصدر نفسه ج.1ص10-11.

[19]- الشاهد اللغوي.يحي جبر ص 269.

[20]- عيون الأخبار.ابن قتيبة.دار الكتب المصرية..د.ط القاهرة.1996 مج 2 ، ص 185.

[21]- الصاحبي ،أحمد فارس.المكتبة السلفية.د.ط .القاهرة.1910 . ص 43.

[22]- الاستشهاد والاحتجاج باللغة. عيد محمد ، ص 38.

[23]- الكتاب لسيبويه.تح عبد السلام هارون.مكتبة الخانجي.ط3 القاهرة.1988 ج 1، ص 179.

[24]- الأصول .د تمام حسان.عالم الكتب.د.ط القاهرة.2000 .ص192

[25]- طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي

[26]- الكشاف للزمخشري ج2صفحة 411.